كتاب الاسلام (*)

(لكونت هنري دي كاستري)

يعلم من له وقوف على التاريخ الحديث ان الحروب الصليبية هي مبدأ جميع المشاكل بين المسلمين وبين اوروبا بل بين هذه وبين جميع الشرق ولقد كان مبدأ تلك الحروب تحمس وغلو في الدين وتعصب من اوروبا على الاسلام وما كانت لتهب تلك الامم كلها وتندفع على الممالك الاسلامية وتعمل على ابادة الاسلام وهي تعتقد انه دين قيم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحفظ العهد والذمة ويقيم القسط في بلاد كان له السلطان عليها اذ لا يجوز اتفاق امم كثيرة على حب الشر وكراهة الخير والرغبة في محوه واصطلامه وان جاز ان يجنح الى ذلك افراد او جماعات من الناس نشأوا على الشرور وتربوا على الفساد او اعمتهم الحظوظ وشهوات النفوس من حب الرياسة وغيره وانما طوح بامم اوربا الى ذلك ارقوماً من ارباب الاهواء مثلوا لهم الديانة الاسلامية بتمثال مشوه اجتمعت فيه المعايب والرذائل المتفرقة في العالم كله وزايلته جميع المحامد والفضائل والمحاسن الى ما لا عمل لشرحه هنا.

تفجر طوفان تلك الفتن بغرف ما جرف وفاضت بحار الانتقام فغشي الناس من اليم ما غشيهم واعقب ذلك الجزر الى اجل مسمى ثم فاض ثائب تلك البحار باسم جديد وتلون بالوان المدنية الحديثة المدهشة ببراعة منظرها وغرابة مخبرها . مدنية روحها الثروة وجسدها الثروة تترب طلاب الكسب فيها

(*) فاتحة العدد الحادي عشر الذي صدر في ١١ المحرم سنة ١٣١٦

الابعاد وخالطوا جميع الامم حتى كادت الارض تكون مدينة واحدة . بهذا امكن لاهل اوربا الوقوف على حالة المسلمين في سيرتهم الدينية ولكن «عندما» دب اليهم داء الامم السابقين » و«اتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع » فكان لمن رآهم بعين السخط دليل من انفسهم على ما رماهم به الطاعنون حتى بما يسمونه عبادة القديسين كما هو منصوص في كتبهم، ومسموع من كلمهم، ومنهم من نظر بعين الانصاف فرأى من اعمالهم حسناً وقبيحاً وتبين له ان قومه مفرطون في ذمهم للاسلام وغالون في تحزبهم وغمطهم للمسلمين

ومن هؤلاء من ذهب به حب اكتشاف الحقيقة الى النظر في القرآن وغيره من كتب الدين حتى ادى به البحث الى الاعجاب به ثم اعتناقه او الثناء عليه

ومن المثنين على الاسلام في مصنفاتهم (الكونت هنري دي كاستري) كتب كتابا سماه (الاسلام، خواطر وسوانح) بحث فيه عن صدق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في نبوته فقند مزاعم قومه فيه لا سيما اصحاب «اغاني الاشارات» التي كانت السبب في الحروب الصليبية وتكلم على الاسلام في زمن الفتح وما بعده وعلى القضاء والقدر وغير ذلك من المسائل التي يطعن بها اهل اوربا على الاسلام، وتكثر المباحث بها في هذه الايام، لا سيما من المستشرقين في اوربا . ويستشهد في كلامه بالقرآن العزيز ويحتج بآياته . كل هذا وعلماء المسلمين لا يدرون في الغالب ماذا يقال في دينهم مدحاً ولا ذماً بل تركوا الامر لاهل اوربا يفترون عليهم بما يشاؤن وكيف يدرون وهم لا يعرفون لغات القوم ويذمون في الاكثر من يتعلمها ويختبر حالة اهلها

وينظر في كتبهم وربما طعنوا في دينه من جراء ذلك حتى كادت الطبقة العارفة بلغات أوربا والناظرة في فنونها تكون منفصلة عن الطبقة المشتغلة بعلوم الدين انفصالا تاما، ولا مجال هنا لبيان الضرر في ذلك على الامة الاسلامية وانما نقول انه يوجد في علماء الدين من يعلم وجه حاجتنا الى علوم اوربا حق العلم ويوجد في العارفين بعض لغات الاوربيين والناظرين في فنونهم من يحب خدمة الملة والدين بعلمه ومن هذا الفريق العالم القانوني الفاضل عزتلو احمد فتحي بك زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية فانه يختلس الفرص من اشغاله القضائية الكثيرة لترجمة الكتب النافعة ولقد ترجم غير كتاب ولا يزال يدأب في هذه الخدمة . وآخر كتاب نقله للعربية وطبعه كتاب الاسلام للكونت دي كاستري المشار اليه آنفاً .

احب القاضي الفاضل ان يعرف قومه ماذا يقال عنهم رجاء ان تنهض هممهم للمدافعة عن انفسهم بالاستدلال واصلاح الحال فاننا اذا اقنعنا اوربا بان ديننا دين علم وتهذيب (وهو الواقع) يوشك ان يتغير فيها الرأي العام فينا ولنا في ذلك من المنافع العلمية والسياسية مالا يجهل . وقد احببت ان اتحف قراء المنار بمقدمة حضرة المترجم لما فيها من الفائدة والتنبيه لما ينبغي ان تتوجه اليه افكار المسلمين لا سيما العلماء منهم فاننا نحن المسلمين نعتقد ان القرآن هو اول كتاب سماوي الف بين الدين والعقل، وجمع بين مصالح الدنيا والآخرة بالعدل، وان نبينا عليه الصلاة والسلام انما بعث يتمم مكارم الاخلاق، ويضع حدود الفضائل والآداب، واوربا ترمينا بنقيض ذلك كله ونحن نكاد نصدقها باعمالنا وأحوالنا حيث نعرض عن الفنون العصرية، ولا نكذبها بأقوالنا حتى قام منها من يدافع عنا، فكان أولى بنا منا

ولو كنا نحن المناضلين عن أنفسنا لكانت الفائدة أتم ، والمنفعة أعم ، فعسى ان يلتفت الى هذا الامر الجليل أهل الرشاده كيلا نكون مع مناظرينا كالنعامة مع الصيّاد

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، أما بعد فاني عثرت على كتاب فرنساوي الفه حضرة الكونت هنري دي كستري في الدين الاسلامي سنة ١٨٩٦ ميلادية ولما فرغت من قراءته وجدتني منساقا الى ترجمته فلم يدركني ملل ولا نصب حتى أتيت على آخر الكتاب وعدت فراجعت الترجمة فاذا هي تكاد ان تكون حرفاً بحرف ثم توجهت الفكرة الى طبع هذه الترجمة ونشرها على الناطقين بالعربية فاعترضني بعض الاصدقاء بعد ان أريته شذرات من الترجمة وكان من رأيه عدم النشر بالطبع واحتج بان الكتاب وان كان غاية في التدقيق قاصداً نهاية التحقيق غير انه اضطر الى ذكر ما كان يعتقده او يتوهمه مسيحو العصر الحالية في الدين الاسلامي من الشناعات والسباب وذكر مثل هذه الاشياء وان كان على سبيل الرد عليه ربما اشمأزت له النفوس ووقع من المطلعين عليه موقع الاعتراض وعدم القبول فهو لا يروق من هذه الجهة جماعة المسلمين وانني لم يكن ليخطر ببالي مثل هذا الخاطر ولم يدر في خلدي ان يعترض واحد على ذكر هذه

الاشياء في الكتاب وهي لم تذكر من المؤلف وهو مسيحي على انها حقائق بل اوردها على انها اوهام علقت باذهان المسيحيين من تلك الاعصر وترتب عليها ارتسام المسلمين في مخيلاتهم بالصور الشنعاء واراد المؤلف محو هاته الصور من مخيلات الاجيال الحاضرة فبرهن واقنع واستدل بالحجة القاطعة على ان تلك موهومات لانصيب لها من الحقيقة وذكر اسباب ايجادها في النفوس ورغب الى قومه ان يستبدلوا تلك الصور المشوهة بصورة الاسلام الحقيقي وما يدعو اليه من خير واصلاح فلذلك لم اعول على رأي ذلك الصديق في التأخر عن الطبع الا انه اوجب عندي استشارة غيري وغيره فرأيت امام الصديق المعارض اصدقاء موافقين وغيرهم مستحسنين وغيرهم آمرين وبالطبع غلب رأي الاكثرين رأي الواحد خصوصاً وانه لم يستند الا على شيء قال ربما يحصل ونحن نقول ربما لا يحصل وان حصل فهو من عدد قليل وانه لو لم يذكر المؤلف ما ذكره من تلك الموهومات ونبه على فساده وبرهن على خلافه لبقي مركوزاً في اذهان قومه وبقينا ونبينا عندهم على ماتوهمه السابقون منهم اما وقد فعل فلا شبهة في انه خدم ما استطاع ووجب علينا شكره ما استطعنا ومن تمام شكره اعلام قومنا بكتابه ولكنا لم نرد ان نأخذه بدون اذنه واستمنحناه الاذن فيه فتفضل بالاجابة وكان له بذلك الشكر والامتنان

على ان امكان اشمئزاز البعض مما جاء في هذا الكتاب من الاقوال التي ردها المؤلف ودل على خطائها بالبرهان لا يقابل الفائدة التي نراها من نشره والذي يقصد الفائدة ويتحرى مآخذها لا ينبغي له ان يلتفت الى ماعساه يكون من تهزز بعض القراء فانهم لو انصفوا لما نفروا

هذا وان قومي لعلى علم تام من ان مقصد مثلي حسن وغرضي انما هو التنبيه على انه قد وجد من غيرنا من قام للدفاع عنا بذكر الحقائق وسرد الوقائع التاريخية الصادقة فسفه رأي قومه فينا وابان لهم وجهي الخطأ والصواب ومن الواجب علينا ان نعرف ماقيل عنا، وما دفع به المدافعون وليتهم كانوا منا، وان نتعرف صاحبي الرأيين فنعرف المخطيء ولا ندع له بابا آخر للطعن علينا ونعرف لذي الصنيعة صنعه الجميل فنزيده اعتقادا باستحقاقنا لما صنع . وفينا كتاب الله اعظم مرشد لهذا السبيل فقد حكى بعض المذاهب بنصها وفصها ورد عليها بغاية الايضاح والتبيين وعندنا كتب سادتنا الاولين في علوم الاصول والكلام وكلها تحكي المذاهب الباطلة مفصلة وترد عليها ومن علمائنا السابقين من يوجب حكاية المذهب الفاسد ليتمكن المطلع من الرد عليه بالدليل فاذا كان هذا هو الحال في المذاهب التي قررها اصحابها ويخشى حقيقة من انتشارها لانها مبرهنة بنوع من البرهان وان كان فاسد المقدمات فما الظن بما حكاه الغير عنا على وجهه اما غلطا أو قصدا لغرض مخصوص . اظن انه لايختلف اثنان في انه من ألزم الواجبات حكاية ماحكوه واشهار ماقالوه واذا كان الغرض في القسم الاول هو الرد عليه فليكن الغرض من هذا القسم معرفة مارمينا به وهذا بلاريب ينتج الرسوخ في العقيدة عندنا وينتج ايضا اقتناع الواهمين بعدما توهموه وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء ويحبها أفاضل العلماء

وفوق هذا فانا بذكرنا ماقالوه قدحا علينا أو طعنا في ديننا أو صاحبه عليه الصلاة والسلام نرجع الى انفسنا ونبحث عما اذا كان لاقوالهم من اعمالنا منتزع أم لا فان كان لهم منها منتزع علمنا كما هو الصواب انه ليس

من أصل الدين فلا نلبث ان نتباعد عنه ونرجع لاصل الدين القويم ولا نحيد عن العمل به في أي حال من الاحوال وان لم يكن لهم من اعمالنا منتزع ادركنا ان لهم غرضاً مخصوصاً وعملنا على مايزيل هذا الوهم من انفسهم أو يدفع بهم الى تغيير غرضهم فيناوهم لاشك مجتنبوه اذا رأوا منا ذلك المنهج المعتدل والسير على الصراط المستقيم فان مقاومة الوهم بمثله لاتفيد

ثم انه لاينكر ان في همتنا قصوراً عن البحث فيما يعتقده الناس فينا فاذا قيض الله لنا من بحث بدلنا ورد الشبه عنا فما أجدرنا بقبول عمله واظهار الرضا به وما اولانا بنشر تحقيقاته بيننا حتى نعم فائدتها جميعنا وربما جرتنا هذا الى الاشتغال بانفسنا فانه ماحك جسمك مثل ظفرك ولا احسن من ان يتولى الانسان مصالحه بيده مع حفظه حق مرشديه وعدم انكار صنيعهم الجميل

ولقد رأيت المؤلف من التثبت في النقل والاعتدال في الحكم واستعمال الذوق في الورد واعمال العقل في النقد وطريقه والاستشهاد بالوقائع التاريخية ماخالق به سواه من مؤلفي زماننا فبان لي انه غرضه الحقيقة ايا كانت ولا اولخنده في بعض مواضع كتابه مما لم يطابق نقله الاحكام الشرعية اذ ربما اعتمد فيه على قول بعض النقلة وربما كان نقله صحيحا على بعض المذاهب التي لم أقف أنا عليها ولذا لم ألاحظ عليه في الهامش ملاحظات مستقلة وفضلا عن هذا فاني رأيت ان تكون الترجمة نقلا للاصل برمته ليعلم ماذا تعتمد وماذا تكتب ويكفينا منه انه طالب للحق وان جاء في بعض آرائه ماعساه يحمل على الخطأ مثل الذي له في التأويل والحكاية عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم واعماله واعتقاداته. على انه لا يفوت قراء الترجمة

ان الكتاب كتب لينشر بين قوم المؤلف وكان لا بد له من ملاحظة افكار المكتوب اليهم واحوالهم وربما اضطر في ذلك الى ابراز بعض الحقائق الثابتة عنده في صورة الاحتمال والامكان كما يشير اليه كتابه الي ايذانا بنشر ترجمته كذلك لم اشأ ان اكون معه من المجادلين لئلا تضيع الحقيقة او يجر الامر الى الانكار على صاحب مقصد حميد

هذا واني تارك هنا ما نحن عليه من وقوف حركة النظر ومن تعطيل قوة البحث في العلوم ومن ترك ما دعينا للعمل به من قواعد الدين ومن الابتداع فيه وعدم العمل بزواجره واجتناب نواهيه ومن اغفال ما حثنا عليه من العلوم النافعة والتربية الناجعة فان ذلك وان كان له مساس بما نحن بصدده الا انه يقتضي الشرح الطويل مما لا يحتمله هذا المقام لكننا نقول قولة مجملة بأن الاسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يرضى منا بالغفلة عن المنافع والمصالح ويطالبنا بدفع المفسدة ويحثنا على مكارم الاخلاق ويبين لنا ان كل بدعة ضلالة وان كل ضلالة في النار وان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وان العلم يطلب ولو في الصين وان لا شيء من العلم بضار ولا شيء من الجهل بمفيد وان من احدث في الدين ما ليس منه فهو رد عليه . هذه هي تعاليم الاسلام الا ان الاعصر المتأخرة قد خرجت بالدين الى ما ليس منه فعطلت شعائره الحقيقية ودخلت فيه البدع وتغلبت المعتقدات الفاسدة على القواعد الصحيحة وتمسك الناس بالبدع وتركوا الفروض والواجبات وكاد القرآن يتلى مع الآلات المطربة والصلاة تؤدى في الحانات وانمحت العلم واضمحلت العزائم وقعدنا عن تحصيل القليل من ضروريانا وتأخرت التربية فقسدت الاخلاق وتناكرت

النفوس فاختلفت المداعي وتماكست المقاصد فتفرقت المنافع وانحل عقد نظام المسلمين فاصبحوا اشتاتاً يمقتهم الناس ويرمونهم بالانحطاط ويميزونهم بما تنزه عنه شرعهم ولكنهم الفوه وبالغوا في التمسك به حتى تبدلت الاحوال وصار كما قال صاحب المنار « الجبر توحيداً وانكار الاسباب ايماناً وترك الاعمال المفيدة توكلاً ومعرفة الحقائق كفراً والحاداً وايذاء المخالف في المذهب ديناً والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفاناً والذلة والمهانة تواضعاً والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضى وتسليماً والتقليد الاعمى لكل متقدم علماً وايقاناً » ثم كان هذا كله واكثر منه مما نمسك عنه واغلسفنا ما ذكرنا معذرة لمن يفهم من الاجانب ان سوء حالنا آت من جهة ديننا وان رضوخنا للجهالة احدى دعائمه كما يتبين من عرض افكارهم في هذا الكتاب والدين براء منه . وكيف نطلب منهم حسن الاعتقاد في الاسلام وهم يرون المسلمين يأتون من الاعمال مالا ينطبق على عقل ولم يقل به شرع اللهم الا اذا كان كما فهموه منا . انهم في الحقيقة معذورون اذا نسبوا اعمالنا هذه الى الدين فانهم لا يفرقون بين ما هو منه وما هو بعيد عنه وليس لهم الا أن يعتقدوا بان عملنا مأمور به لا منهي عنه

الى هنا نمسك القلم ونترك القول للمؤلف سائلين أن يستصحب القارىء معه في قراءة هذه الترجمة ماقدمناه من الملاحظات وبالله الاستعانة وعليه الاتكال في صلاح الاعمال اه